

الدلالات الفلسفية والأصول المنهجية للبحث العلمي الطبي

عند الرازي

* د. سمية محمود الجربي

تقديم:

أفرزت الحضارة الإسلامية العديد من الأعلام الخالدة ذكرهم في تاريخ الفكر الإسلامي والعالمي، ففي ظلال الدولة الإسلامية العريقة ازدهرت العلوم والفنون والفلسفة، كما برز العديد من الأطباء العظام ممن كان لهم بالغ الأثر في تطور علم الطب بصورة كبيرة، وذلك لما تركوه من آثار فكرية وعلمية تمثلت في الاكتشافات والإضافات والتصحيحات والمؤلفات التي ظلت لقرون عديدة هي المرجع الأساسي في دراسة الطب والصيدلة والكيمياء.

ولعل من أهم الشخصيات الطبية في الحضارة الإسلامية، الطبيب الشهير، العالم الموسوعي أبوبكر محمد بن زكريا الرازي (ق 313هـ) الملقب بأبي الطب العربي، وجالينوس العرب، الذي كان له القدر الأعظم من الثناء والتقدير لدى المؤرخين والمستشرقين، إذ كان علمه وما تركه من مؤلفات ظلت لقرون عديدة تمثل المرجعية العلمية الطبية بلا منازع؛ لذلك كان من الواجب علينا أحفاد العظماء وحملة الإرث العلمي الجليل، أن نُعرفَ بأعلام حضارتنا كي تكون النبراس لنا في دروب البحث العلمي والفلسفي، فالطبيب الفيلسوف الرازي أحدهم وأبرز أعلام وأئمة الطب، ليس الإسلامي فقط، بل والإنساني العالمي كذلك.

فما هي تلك المناهل التي انتهل منها؟ وما مدى تأثره بالنظريات الطبية السابقة؟ وكيف لنا الوقوف على الدلالات الفلسفية والأصول المنهجية لدراسته وبحثه العلمي الطبي؟ وما هي أهم انجازاته وابتكاراته في مجال الطب؟ جُل هذه التساؤلات توضح لنا أجوبتها عظم مكانة أحد أهم أطباء التاريخ، الذي ظلت مؤلفاته الطبية مرجعاً أساسياً في جامعات أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادي، فقد " أجمع المؤرخون الذين أَرخوا للعلوم العربية على أن الرازي قد مثل عظمة الطب العربي والإسلامي في أزهي عصوره، وأنه من أعظم

* عضو هيئة تدريس كلية الآداب جامعة طرابلس ليبيا

الأطباء الذين عرفتهم الحضارة الإنسانية على مرّ العصور" (دياب، 1992، ص 186)، كما يؤرخ له أنه ترجمت العديد من كتاباته إلى اللغة اللاتينية وطُبعت عدة مرات، وأنه لم يكتف بدراسة الطب العربي والطب اليوناني فقط كغيره من كبار الأطباء المسلمين، بل أنه أضاف إلى ذلك أيضاً الخبرة بالطب الهندي، مما أتاح له تحقيق العديد من الانجازات الخالدة في تاريخ العلم الطبي (جوستاف 1964، ص 589).

تجب الإشارة أولاً إلى أنه هناك نوعين من الأطباء في ظلال الحضارة الإسلامية الفلاسفة الأطباء ويمثلهم ابن سينا، والأطباء الفلاسفة ويمثلهم الرازي، فمن الموافق تقسيم الأطباء العرب إلى مجموعتين: ممارسون ومدرسون، يمثل الممارسون الرازي، ويمثل المدرسون ابن سينا، وهما يمثلان في الحقيقة مذهبين

مختلفين تماماً (موسى، 1972، ص 175) ويتضح الفرق من جهة أن المدرسين قد درسوا الطب على أنه نوع من المعرفة الضرورية التي لا غنى عنها، وبتحصيله يتم له استكمال المعرفة بجوانبها المختلفة، أما الممارسون أمثال الرازي، فإن اهتمامهم بدراسة الطب قد جاء بدون دافع خارجي سوى رغبته الخاصة في تحصيل العلم الطبي، ومعرفة الأمراض وتشخيصها وكيفية علاجها، لذلك فإن العلاقة بين دراسة الطب والفلسفة لدى الممارسين هي علاقة وسيلة بغاية، وهذا ما لا نجده عند المدرسين، فالمدرسون يعنون بالتنظيم والتقسيم المنطقي، أما الممارسون فيعنون بالمشاهدات والدلالات، بُغية الحصول على المعرفة الطبية كاملة صحيحة (موسى، 1972، ص 176).

تعريف بحياة الرازي ومسيرته العلمية :

ولد الرازي ونشأ في مدينة الري جنوب طهران، وسافر إلى بغداد وأقام بها مدة وكان قدومه إلى بغداد وله من العمر نيف وثلاثين سنة، كما كان شاعراً وموسيقياً يضرب على العود ويحسن الغناء، إلا أنه ترك ذلك وأقبل على طلب العلم ودراسة كتب الفلسفة، ويذكر أنه لم يفلح في فهم العلم الإلهي وإدراك غايته الحقيقية، يذكر ابن أبي أصيبعة، نقلاً عن القاضي صاعد في كتابه طبقات الأمم أن: الرازي توغل في العلم الإلهي وما فهم غرضه الأقصى، فأضطرب لذلك رأيه وتقلد آراءً سخيفة، وانتحل مذاهب خبيثة، وذم أقواماً لم يفهم عنهم، ولا هُدي لسبيلهم (عوني عبد الرؤوف وآخرين 2006، ص ص 299-302).

أما صناعة الطب فقد رغب في تعلمها وقد كبر في السن، فتعلم على يد الطبيب على بن ربن الطبري وهو من أفاضل عهده في العلوم الطبية، فعكف الرازي على دراسة الطب

وملازمة البيمارستانات، ليشاهد ويتعلم، فكان بفضل نبوغه في الصنعة جديراً بأن يُلقب بـ(جالينوس العرب)، وأن تصل مؤلفاته إلى الغرب، فتعد بعد ذلك مصدراً أساسياً لتعلم الطب، فعُرف في الغرب باسمه اللاتيني (Razes) (هوارد 2004، ص170)، كما لقبه الأوربيون بلقب (بويل الفارسي)، وذلك نظراً لاقتداره العظيم في الطب والكيمياء تشبيهاً له بالكيميائي البريطاني روبرت بويل Robert Boyle (جودة، 2004، ص90). وبفضل ذلك النبوغ والمهارة في الصنعة، عُيِّنَ رئيساً للأطباء في بيمارستان الري، ثم بيمارستان بغداد (القفطي، 2008، ص272)، ويذكر أن عضد الدولة قد استشاره في الموقع الذي يبنى فيه البيمارستان، فأمر الرازي بعض الغلمان أن يعلق في كل ناحية من جانبي بغداد شقة لحم، ثم اعتبر التي لم يتغير ولم يهلك فيها اللحم بسرعة، فأشار بأن يُبنى في تلك الناحية، وهو الموضع الذي بُني فيه البيمارستان العضدي، فقد فطن الطبيب إلى أهمية البيئة الصحية والنقية لجسد الإنسان ومزاجه، وأن المناخ الجيد هو الأنسب لشفاء المرضى وعلاجهم، فكلما كانت جغرافية البيمارستان صحية ونقية، ساعد ذلك في سرعة الشفاء وزوال الأسقام، غير أن ابن أبي أصيبعة يُعلق على الرواية ناقداً بقوله: "أقول والذي صح عندي أن الرازي كان أقدم زماناً من عضد الدولة بن بويه، وإنما كان تردده على البيمارستان من قبل أن يجده عضد الدولة"، غير أن ما يهمنا في الرواية هو الإشارة إلى ما فطن إليه الرازي من أهمية البيئة الجغرافية الصحية للأجساد الإنسانية.

وكان للرازي مجلس يُعد من أكبر مجالس العلم آنذاك، وكانت له منهجية فريدة في التعليم ومداواة المرضى في أن واحد، حيث يجلس الرازي وتلاميذه على هيئة حلقات، وكل تلميذ من هؤلاء أستاذ أيضاً لمجموعة من طلاب العلم الآخرين، وهكذا حتى تصل إلى آخر حلقة أبعداها عن الطبيب الرازي، فقد "كان يجئ الرجل فيصف ما يجد لأول من يلقاه منهم، فإن كان عنده علم، وإلا تعدها إلى غيره فإن أصابوا، وإلا تكلم الرازي في ذلك (القفطي، 2008، ص273) وبذلك يكون قد أتاح لتلاميذه اختبار معارفهم وعلمهم في تحديد تشخيص الأمراض ومداواتها، فإن أصابوا فقد وُفقوا بعلم صحيح، وإن أخفقوا فيرتقي في اختبار الأساتذة الأكثر منهم معرفة وعلماً، وهكذا وصولاً إلى المعلم والطبيب الأمهر، وبتلك المنهجية العلمية التعليمية العملية يتحقق العلم للتلاميذ والشفاء للمرضى، وهذا ما نراه اليوم من الأطباء الاختصاصيين يقومون بإعداد فريق من المتخصصين في مجالهم ممن لم يصلوا بعد إلى مستواهم، ليقوموا بإحالات بعض الحالات المستعصية عليهم، ليست من ابتكارات هذا العصر، فقد سبق أطباء المسلمين إلى ذلك منذ قرون طويلة.

كما ارتبطت دراسة الطب لديه بدراسة العلوم الطبيعية والمنطق والرياضيات، ولم يكن ذلك بالأمر الغريب آنذاك، فقد كان ملاحظاً في التراث اليوناني الذي نقل إلى العالم العربي أن الطب يظهر فيه واضحاً تأثير النظريات الرياضية والطبيعية والمنطقية ولذا وجب على الطبيب أن يعرف الهندسة والنجوم، وإلا لم يعرف تقسيم الأزمنة وحال الأبدان، ويحتاج أن يعرف المنطق وإلا لم يحسن أن يقسم أجناس الأمراض إلى أنواعها، ولا يعرف صواب من أصاب، وخطأ من أخطأ، وذلك لاعتبار المنطق آلة تعصم الذهن من الخطأ (موسى، 1972، ص 147).

ويذكر عن أخلاقه وطباعه أنه "كان كريماً فاضلاً باراً بالناس، حسن الرأفة بالفقراء والأعلاء حتى كان يجري عليهم التجربات الواسعة ويُمرضهم (القفطي، 2008، ص 273)، فقد كانت أخلاقه المهنية فاضلة لأبعد مدى، إذ كان رؤوفاً بالمرضى مجتهداً في علاجهم وفي بُرئهم بكل وجه يقدر عليه، مواظباً للنظر في غوامض صناعة الطب والكشف عن حقائقها وإسرارها" (عوني عبد الرؤوف وآخرين 2006، ص 346)، ويؤرخ له أنه: "لم يكن يفارق النسخ، إما يسود أو يبيض (القفطي، 2008، ص 273)، مما ترك أثراً على عينيه، "وعُمى في آخر زمانه بماء نزل على عينيه، فقليل له لو قدحّت، قال: لا، قد أبصرت من الدنيا حتى مللت، فلم يسمح لعينيه بالقدح" (القفطي، 2008، ص 272)، وقد اختلف في عام وفاته ما بين عامي ثلاثمائة وعشرين أو ثلاثمائة وأربعة وستين، فقد كان نابغاً عالماً دقيق الملاحظة، وكان يكتب ملاحظاته بعد فحص المريض لمعرفة سير المرض والعلاج الذي يقدم للمريض، وهذه الملاحظات التي كان الرازي يقوم بتدوينها هي التي جمعت بعد وفاته في كتاب يُعد من أشهر كتب الطب في التاريخ الطبي (ومن أشهر ما كتبه الرازي) وهو كتاب الحاوي" (دياب، 1992، ص ص 185 - 186).

مصنفاته الطبية :

ترك الطبيب الرازي العديد من المؤلفات في مجالات مختلفة، كالطب والعلوم الطبيعية والمنطق والفلسفة والرياضيات والموسيقى، غير أن العديد من هذه المؤلفات قد فقدت، ولكن ما بقى منها إلى الآن ليس بالقليل، وهي كافية للتدليل على عظمة هذا الرجل وعلو مكانته (الماحي، 1959، ص 77)، حيث كتب العديد من الإسفار والرسائل الهامة في مجالات الطب المختلفة كالطب العلاجي والأمراض الجلدية والمفاصل والتغذية والجراحة والصحة العامة. كما كتب في الأمراض النفسية والعضوية النفسية، والأخلاق الطبية، أي ما ينبغي أن تكون عليه أخلاق الأطباء وكيفية تعاملهم مع المرضى وآداب التعامل معهم. إلا أن كتاب

الحاوي يعد من أعظم وأجل ما كتب الرازي في صناعة الطب، " وذلك أنه جمع فيه كل ما وجده متفرقاً في ذكر الأمراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين ومن أتى بعدهم إلى زمانه، ونسب كل شئ نقله فيه إلى قائله " (عوني عبدالرؤوف وآخرين 2006، ص 352)، فكانت تلك منهجية فريدة في التأليف العلمي والبحث الطبي، وهو لذلك يعد (أي كتاب الحاوي) من أهم المراجع الطبية شمولاً في الفترة السابقة على القرن التاسع عشر، وتشكل المجلدات الثلاثة والعشرون لهذا الكتاب موسوعة في المعارف الطبية الإغريقية، ومعارف ما قبل الإسلام في الشرق الأدنى والسريرية والهندية والعربية . وكانت الطريقة التي اتبعها في كتابه، تتضمن وصفاً لجميع الأطباء السابقين عليه ولما خلفوه من نظريات واكتشافات، ثم يأتي أخيراً بذكر رأيه الخاص إما مصححاً وإما مؤيداً.

كما خلف الرازي العديد من الكتابات التي لا تقل أهمية عن الحاوي، بل أنها نالت بدورها القسط الكبير من الشهرة في الأوساط الطبية العربية والغربية، ككتاب المنصوري، والجامع والمدخل والكا في وكتاب الجدري والحصبة وكتاب منافع الأغذية، ومحبة الطبيب وكتاب الأسرار، وغيرها من الكتب الرسائل العلمية الطبية الجليلة (عوني عبد الرؤوف وآخرين 2006، ص 352 - 361).

تميز الرازي في كتاباته بأسلوب علمي واضح الملامح، وبالالتزام بقواعد الأمانة العلمية في النقل من غيره فيذكر المصادر التي نقل عنها، وأسماء أصحابها ولا ينسب لنفسه ما هو حق لغيره . كما أنه قد وضع الآثار والمؤلفات الطبية القديمة لأطباء اليونان والهند وغيرهم ممن ظهر قبله على محك النقد الشديد، وكان واسع الاطلاع على علم التشريح، ووضع في مؤلفاته وسائل جديدة لم تستخدم من قبله كاستخدام الماء البارد في علاج الحميات المستمرة الذي أخذ به علم الطب الحديث وكاستخدام الكحول والفتائل وكاستخدام المحاجم لمعالجة السكتة، وغيرها مما سيرد ذكرها فيما بعد (جوستاف، 1964، ص 494). كما كان دقيقاً حريصاً في كتاباته الطبية أشد الحرص على بلوغ اليقين وعدم مجانبة الصواب من الآراء، فقد كان " يبدأ أولاً بوصف أعراض المرضى والعلامات المميزة له في كل حالة من الحالات، ثم يصف الدواء في ضوء الأعراض التي يشعر بها المريض أو تظهر عليه، وهذه الخطوات شبيهة بالتشخيص الطبي في بداية التقدم الحضاري فالطبيب يفحص المريض للتعرف على نوع المرض ثم يصف العلاج المناسب لمرضه " (الدجوي، 1997، ص 111).

منهجه العلمي والتعليمي :

ارتبطت دراسة الطب عند الرازي بالأبعاد الفلسفية والمنطقية التي تشكل مُجمل فكره ونهجه البحثي العلمي، فنقول بأنه اتبع الطريق المنطقي في سير العقل وبحثه عن تشخيص المرض وأسبابه وكيفية علاجه، وهذا ما نقله إلى تلاميذه أيضاً، حيث نجده يتبع الترتيب المنطقي في التعريف بالأمراض ومعرفة أسبابها، فعلى الطبيب أن يبدأ أولاً بالتعريف على أعراض المرض . ثم يحاول أن يعرف سببه، وهل هو سبب واحد، أم له أسباب منقسمة، ثم يقدم العلاج وفقاً لما استقر عليه من الأسباب ولا بد أن يكون مدركاً لمدى تقبل المريض للعلاج، وعليه أن يحترس أيضاً من أن تكون معالجات علة أخرى بسيطة قد تؤثر في علاج العلة الرئيسية (حربي، 2006، ص94) . يقول الرازي لطلابه في كتابه " المرشد " أن على طالب العلم الطبي أن يطلب في كل مرض هذه الرؤوس (اسكندر، 1961، ص113):

أولاً المسمى أو التعريف، ومثاله: أن تقول إن ذات الجنب هو اجتماع حمى حادة مع وخز في الأضلاع، وضيق في النفس وصلابة في النبض وهذا هو التعريف.

ثانياً: على الطبيب أن يطلب العلة والسبب ومثال ذلك : أن تعلم أن سبب ذات الجنب ورم حار في ناحية الغشاء المبطن للأضلاع،

ثالثاً: إن يطلب الطبيب على أقسام السبب وأنواعه إن وجد،

رابعاً : أن يطلب تفضّل كل قسم من الآخر : ليقف على نوع المرض بأدق صورة ممكنه،
خامساً : يأتي العلاج، ويعدّه يكون الاستعداد، وهو أن يعرف الطبيب مدى استعداد جسد المريض لقبول العلاج وسيره نحو الصحة والعافية كذلك يجب الاحتراس، أي الوقاية من بعض الأخطار أثناء العلاج.

ثم أخيراً يأتي دور الإنذار، وهو أن تعلم أن هناك بعض الأعراض التي قد تنذر بمرض أعظم وسوء حالة المريض، وبذلك يكون الطبيب قد نظر في كل علة في هذه الرؤوس واستوفي ما فيها وأكمل ما يحتاج إليه منها " وفي ذلك تقيّد منه بالمنطق اليوناني الذي يجعل التعريفات مستندة على مبحث العلل، إذ كانت غاية العلم هي البحث عن العلل واكتشافها" (الدجوي، 1997، ص111)، ويعد هذا النهج هو الجانب النظري من منظومة الرازي التعليمية العلاجية ويبدو تأثره بالفلسفة والمنطق واضحاً جلياً. أما الجانب الآخر فيتمثل في الطريقة العملية في تلقين العلم للطلاب وعلاج المرضى في آن واحد، فقد حرص الرازي على تعليم طلابه حرصه على علاج مرضاه أو أشد، وهو يؤكد على

هذين الجانبين من تعريفه للطب فيقول: "الطب هو حفظ الصحة في الأجساد الصحيحة، ودفع المرض عن الأجساد السقيمة وردها إلى صحتها ويتجزأ إلى جزئين هما العلم والعمل" (الصدقي، 1987، ص 24-29). ولا يتحقق العلم إلا بمطالعة الكتب والمؤلفات للأطباء السابقين كذلك ينصح طلابه بعد الاطلاع على أكبر قدر من الكتب والوقوف على ما فيها، أن يجعلوا لأنفسهم كتاباً خاصاً يُضمن فيه الطالب ما غفلت عنه الكتب التي قرأها، فيكون بمثابة المرجع الخاص الذي يسهل الرجوع إليه عند الحاجة، إذ يقول: "إن كنت معنياً بالصنعة وأحببت أن لا يفوتك ولا يشد عليك شئ ما أمكن فأكثر جمع كتب الطب جهدك ثم أعمل لنفسك كتاباً تذكر فيه كل علة ما قصر فيه الكتاب الآخر وأغفله من كل نوع من العلل، فيكون ذلك كنزاً عظيماً وخزانة عامرة حافظاً على الذكر ومسهلاً لتناول ما تريده منه إن شاء الله" (عوني عبدالرؤوف وآخرين 2006، ص 351).

إذن فقد ارتبط الطب عند الرازي بالفلسفة ارتباطاً وثيقاً إذ يتجلى ذلك الارتباط في الجانب المنهجي من خلال تمجيده للعقل ولحرية البحث العلمي دون أي قيود تفرض على العقل من جانب الآراء والنظريات السابقة، فهو يؤكد على دوره الأساسي في بلوغ الحقائق في الأمور كلها " ويعتبره أسمى نعم الله على الإنسان وأعظمها قدراً، فهو في كتابه (الطب الروحي) يقول عن العقل: "ترجع في الأمور إليه، ونعتبرها به ونعتمد فيها عليه، ولا نسلط عليه الهوى الذي هو آفة ومكدره والحائد عن سننه ومحجته وقصده واستقامته، بل نروضه ونُذللُّه ونُحوِّله ونجبره على الوقوف عند أمره ونهيه" (الرازي، المرشد، فصل 377، ص 124). فالهوى وما يترتب عليه من أخطاء وأغلاط يمكننا تجنبها والتغلب عليها بإتباع العقل، وما يصدر عنه من أحكام واعتقادات وحقائق ومعارف يقينية نصل بها إلى العلم الحقيقي، الذي لا غلط ولا خطأ فيه، لذلك نجد ارتباط النهج العلمي لدى الرازي مرتبط لديه بفلسفته العقلية. نجده كذلك يقول: "من لم يعن بالأمور الطبيعية والعلوم الفلسفية والقوانين المنطقية، وعدل إلى اللذات الدنيائية، فأتهمه في علمه ولا سيما في صناعة الطب" (جودة، 2004، ص 95). فالطب لديه مرتبط ارتباطاً كبيراً بالعلوم الفلسفية والطبيعية، حيث كانت للفلسفة وعلوم الطبيعة وقوانين المنطق لها أهمية بالغة في ذلك الوقت لدى العديد من الأطباء في تعلم وفهم الغاية الحقيقية للعلوم الطبية. أما الجانب العملي لمنهج الطبيب الرازي التعليمي والطبي، فيتجلى بوضوح في اهتمام الرازي الكبير بالملاحظة والتجربة من حيث إنهما المحك الذي يُفصلُ به بين الحق والباطل، يذكر ابن أبي أصيبعة في الطبقات قول الرازي:

"الحقيقة في الطب غاية لا تدرك والعلاج بما تنصه الكتب دون إعمال الماهر الحكيم برأيه خطر" (عوني عبد الرؤوف وآخرين 2006، ص 351)، وفي ذلك إشارة إلى أن الطب علم دائم الكشف والبحث والتجريب للتحقيق من الأمراض وإعراضها وأسبابها، وأن النظري منه غير كالكتب وما تحويه من شروح وتفسير وأعراض وعلاجات ليست وحدها السبيل الآمن للجزم في أمر الأمراض ومداواتها ولكن الخبرة العلمية للطبيب الماهر هي التي تُتمم هذا العمل لتؤكد على صحة التشخيص ونوع العلاج وطريقته. فهو دائم التوكيد على أن المشاهدة والتجربة هي الأهم وذلك في قوله: "العمر يقتصر عن الوقوف على فعل كل نبات في الأرض فعليك بالأشهر مما أُجمِع عليه، ودع الشاذ واقتصر على ما جربت" (عوني عبد الرؤوف وآخرين 2006، ص 351).

لذلك يحسب للرازي أنه اعتمد على التجريب وسيلة أساسية لاستقاء المعارف الصحيحة، وإن كان في لجوئه للتجريب لم يكن المنفرد بين الأطباء المسلمين، إلا أنه كانت له بصمته الخاصة في هذا المجال؛ إذ نجده أول من أجرى التجارب العلاجية على الحيوانات قبل تطبيقها على الإنسان، كذلك قد ابتكر الرازي في عصره استخدام ما يُعرف في علم تصميم التجارب باسم "المجموعة الضابطة" (Control group) حيث كان يجري العلاج الجديد على مجموعة من مرضاه ويترك المجموعة الأخرى بدونه ليتسنى له تقدير الأثر العلاجي للعقار الجديد أو الطريقة العلاجية الجديدة (جودة، 2004، ص 95)، مما يدلنا على أن التجربة عند الرازي لم تكن تجربة (اتفاقية)، بل كانت في أغلب الأحيان تجربة (مقصودة) لها ضوابط تحددها وتوجهها. فقد كان متميزاً فريداً في زمانه ليس فقط في دراسة الطب والتشخيص والعلاج، ولكن في طريقة الفحص والتشخيص، فقد امتاز بدقة الملاحظة السريرية، أو ما يعرف الآن (بالطب الإكلينيكي)، الذي يقوم على دراسة حالة المريض بتتبع علامات المرض ومراحلها، ثم يقوم بتسجيل جميع ملاحظاته السريرية بدقة بالغة يقوم من خلالها بتشخيص العلة ووصف العلاج، (ويدل ذلك على أن الرازي كان نابغة في الفحص وتشخيص الأمراض وملاحظة سيرها في أجسام المرضى، وأنه كان يفحص العليل الذي يعرض عليه بكل دقة، وبالوسائل التي وصل إليها، والتي لا تقل في دقتها عما هو معروف في الفترة اللاحقة" (الندوي، 1997، ص 107)، من ممارسات الطب الحديث. كذلك استخدامه المنهج المقارنة في البحث التجريبي الطبي، الذي يتجلى في مقارنته بين مرضي الجدري والحصبة واستخدامه لأسلوب (الملاحظة الوصفية الدقيقة)، الذي يعدُّ الأول من نوعه في تاريخ الطب إذ يقول: "يسبق ظهور

الجذري حمى مستمرة، تحدث وجعاً في الظهر واكلان في الأنف وقشعريرة أثناء النوم. والأعراض الهامة الدالة عليه هي: وجع في الظهر مع الحمى والألم اللاذع في الجسم كله، واحتقان وألم في الحلق وفي الصدر مصحوب بصعوبة في التنفس، وسعال وقلة راحة، والتهيج وغثيان والقلق، أظهر في الحصة منه في الجذري على حين أن وجع الظهر أشد في الجذري منه في الحصة" (حربي، 2006، ص، 107-106).

مرجيته العلمية الطبية :

يمكننا الجزم أن مرجعية الرازي الطبية كانت لجالينوس وأرسطوطاليس؛ إذ يصرح قائلاً "متى اجتمع جالينوس و أرسطوطاليس على معنى، فذلك هو الصواب، ومتى اختلفا صعب على العقول إدراك صوابه جداً" (عوني عبدالرؤوف وآخرين 2006، ص351). كما أقر بأنه متى كان اقتصار الطبيب على التجارب دون القياس وقراءة الكتب خذل، مما يدل على أنه لم يكن ذو عقلية جامدة مقلدة متبعة، بل كان ذو طابع شمولي يسعى إلى بلوغ الحق أينما كان وبكل وسيلة بحثية ممكنة؛ فبالرغم من تقديره لأساتذته جالينوس وأرسطوطاليس، إلا أننا نجده في العديد من المواقع ناقداً ومصححاً لآرائهم المغلوطة، باحثاً عن العلم والحقيقة بموضوعية شديدة، تجعله يترك تقديره لواحد من عظماء الطب كجالينوس، ليقف بذاته على الصواب في التشخيص والعلاج، "فأثناء دراسته للطب الجراحي، اتضح له أن قدامى الأطباء قد بنوا آراءهم على نظريات خاطئة كشفت عن كثير منها في كتب جالينوس... فمن المعروف عن الرازي أنه لم يكن يسلم بآراء غيره، إلا بعد أن يمتحن هذه الآراء ويختبرها ويضعها موضع التجربة، ثم يحكم عليها ولهذا السبب خطأ كثيراً من الآراء" (الدجوي، 1997، ص104). غير أن ذلك النقد من جانب الرازي لا يُعد تجريحاً؛ بل إنه كان على الدوام يحافظ على احترامه وتقديره لمن سبقه من الأطباء، فقد كان منصفاً مُقدراً لمن سبقه من الأطباء "هذا الروح العلمي السامي المتميز بالإنصاف والاعتراف بالفضل لكل من أسهم في خدمة العلم بنصيب، يختلف تماماً عما اتصف به بعض علماء أوروبا من الذين أنكروا فضل العرب على العلوم الطبية وغيرها من العلوم، التي أسهمت في تأسيس الحضارة الإنسانية" (الدجوي، 1997، ص104). ونخلص مما سبق بإجمال أبرز السمات التي ميزت منهج الرازي وكتاباته الطبية إلى :

1. المناقشة وعدم قبول الآراء دون إثبات أو نفي.
2. التحليل الواعي والدقيق للآراء والنظريات الطبية للسابقين عليه للوقوف على الصائب منها وإظهار الخاطئ كذلك .

3. الأمانة العلمية التي تتجلى لنا بوضوح من خلال كتابات الرازي كإسناد الآراء إلى قائلها، وعدم إدعاء فضل الابتكار له، إن لم يكن كذلك واستخدام عبارات معينة تدل على عدم التحري تماماً من صحة القول

4. حرية الرأي وتقرير ما هو مشاهد دون الالتزام بالنظريات القديمة، أضف إلى ذلك تميز الرازي بالثقة بالنفس، واعتماد الجرأة في التصريح بآرائه العلمية، كما اتسمت كتاباته بسلسلة الأسلوب ودقة العرض. انجازات الرازي وابتكاراته في مجال الطب:

كان الرازي يتوخى الدقة الشديدة في الممارسات الطبية من التشخيص والعلاج والوقاية، تلك الدقة التي قادته بالإضافة إلى قوة ملاحظته، وعمق نظرته للأمور، وملكاته في الاستقراء والربط بين الملاحظات المتباعدة إلى فتوح علمية سبق فيها أطباء عصره . كان لمعرفة الرازي بعلم الكيمياء وأصوله، دورٌ كبيرٌ في دراسته للطب وفي انجازاته العلمية؛ "فقد كان أول من أدخل المركبات الكيميائية في العلاج الطبي؛ وبذلك يمكن اعتباره أول الأطباء الكيميائيين" (دياب 1992، ص186)، إذ كان ينسب الشفاء إلى التفاعلات الكيميائية التي تجري في الجسم، وكان يقسم المواد الكيميائية إلى أربعة أقسام، هي المعدنية والنباتية والحيوانية والمواد المشتقة، ثم قسم كل منها إلى أقسام أخرى، مما يدل على ممارسته وتجربته ومعرفته بتفاعلاتها العلاجية. كما كان الرازي أول من ابتكر خيوط الجراحة المسماة بالقصاب (Catgut)، وهو أيضاً أول من صنع مرهم الزئبق وسبق غيره من رجال الكيمياء إلى كشف حمض الزاج واكتشاف الكحول، وكان أول من تنبه إلى توارث بعض الأمراض بناءً على ملاحظاته لظهور أمراض معينة بصورة متكررة في بعض العائلات .وتوصل إلى أن شفاء الأطفال وطبهم يختلف عن الطب العام، إذ ألف كتاباً في طب الأطفال، فكان أول من فصل بين الطب العام وطب الأطفال. وقد فطن الرازي إلى التغذية العلاجية وأهميتها قبل الشروع في استخدام الدواء؛ إذ قال ناصحاً تلاميذه: "أن استطاع الحكيم أن يعالج بالأغذية دون الدواء فقد وافق السعادة" (عوني عبد الرؤوف وآخرين 2006، ص351). وينصحهم كذلك فيما يخص الناقهون من المرض " إذا اشتهاوا من الطعام ما يضرهم فيجب على الطبيب أن يحتال في تدبير ذلك الطعام ويصرفه إلى كيفية موافقتهم، ولا يمنعهم ما يشتهون البتة "، وقال : " ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبداً بالصحة ويرجعه بها، وأن كان غير واثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس" (عوني عبد الرؤوف وآخرين 2006، ص351). بذلك يكون الرازي قد اكتشف أثر الجوانب النفسية في

علاج العلل العضوية، ونبه إلى أهمية الإحياء النفسي حين ينصح الأطباء بإيهام المريض بالصحة. كما أشار الرازي إلى أهمية استخدام الموسيقى في علاج المرضى؛ لما لها من أثر في أنفوس المرضى بما تبثه فيهم من راحة وطمأنينة تدفع بالجسد إلى الاستجابة للعلاج والإسراع في الشفاء، "فقد كان يعتمد عليها بوصفها أسلوباً من أساليب العلاج الطبي، حتى صارت الموسيقى لوناً من ألوان العلاج التي يؤمن بها الطب الحديث في عصرنا" (الدجوي، 1997، ص103). كما أكتشف الرازي أثر الحساسية (Allergy or Hypersensitivity) في بعض الحالات المرضية، فقد كان يعرف الحساسية وأعراضها وأسبابها، غير أنه لم يطلق اصطلاح "الحساسية على هذه الحالات المرضية، ومن انجازاته الطبية أيضاً - كما سبق الذكر - تفرقه بين مرضى الجدري والحصبة وبين المغص الكلوي والتهاب القولون، بالإضافة إلى براعته في طب وجراحة العيون، بداية من تشريح العين إلى ما يصيبها من أمراض، وما تحتاج إليه من علاجات وجراحات إذا لزم الأمر، مع الإشارة إلى الأدوات الخاصة بكل جراحة (جودة، 2004، صص93-92). فقد وضع في علم التشريح مؤلفات تدل على الممارسة والخبرة العملية الطبية، ومعرفته الكبيرة بالأعضاء ووظائفها وما يتداخل فيما بينها من تفاعلات كيميائية وفيزيائية تشكل وحدة الجسد البشري، فبصلاحها وتناسبها وتناسقها تحدث الصحة، وباختلالها يُصاب الجسد بالمرض. وعلى هذا كله؛ فإن الطبيب المسلم أبا بكر الرازي، كان ذا مقدرة عظيمة كطبيب ممارس و(اكلينيكي) قدير معالج، أسهم بفلسفته وطبه في تاريخ الفكر الإنساني؛ بما ابتكره من انجازات، وما اكتشفه من دلالات وأعراض وأمراض، وما تركه لنا من بصمات منهجية سيق بها عصره بأزمان عديدة، شهد له الغرب قبل العرب بتميزه وعظمة فكره وعلمه.

المراجع :

1. التيجاني الماحي، مقدمة في تاريخ الطب العربي، الخرطوم، ط1، 1959، ص 77.
2. جلال موسى، منهج البحث العلمي عند العرب ط 9 "دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1972.
3. جمال الدين القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق: يوليوس ليبيرت، ترجمة: محمود جوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعتر، القاهرة مطبعة الحلبي 1964. ص 589.
4. خالد حربي، نماذج لعلوم الحضارة الإسلامية و أثرها في الآخر، دار الوفاء، القاهرة 2006، ط1، ص 94.
6. ابن أبي إصبيعه، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج، تحقيق: سميح الزين ط1، دار الثقافة ببيروت 1987 ص 343، 345. كذلك، ابن النديم، الفهرست، تحقيق: محمود عوني عبد الرؤوف وآخرين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2006، ج1، ص 299: 302.

7. ماهر عبد القادر، مقدمة في تاريخ الطب العربي، دار العلم للملايين، ط 1، بيروت.
8. الرازي، المرشد أو الفصول، تحقيق: ألبير اسكندر، مج 7، 1961، ص 113 و ما بعدها.
9. الرازي المنصوري في الطب، تحقيق : حازم البكري الصديقي، معهد المخطوطات- العربية، الكويت 1987، ص 29 .
10. عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، دار المعارف، القاهرة، ط 9 . ص 111.
11. على الدجوي، رواد الطب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط القاهرة 1997، ص 111 .
12. عوني عبد الرؤوف، مكتبة الآداب، القاهرة : 2008. ص 272.
13. محمد حسين كامل، طب الرازي ،دراسة تحليلية لكتاب الحاوي، دار الشروق، القاهرة 1977 .
14. محمد غريب جودة، عباقره علماء الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الأسرة، 2004، ص 90.
15. مفتاح محمد دياب، مقدمة في تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، الهيئة القومية للبحث
16. هوارد ر. تيرير، العلوم عند العرب، ترجمة: فتح الله الشيخ، مراجعة: أحمد عبد الله السماحي، المجلس الأعلى للثقافة، ط 1 2004. ص 170 .